حالة صيانة الجامع الكبير بمدينة القيروان في أواسط القرن التّاسع عشر من خلال وثيقة من وثائق الأرشيف الوطني

خولة صدّام معالج•

ملخَص المقال :

يهتَم هذا المقال بالتّعرف على مستوى صيانة الجامع الأعظم بمدينة القيروان في أواسط القرن التّاسع عشر و ذلك من خلال الإعتماد على وثيقة من وثائق الأرشيف الوطني بتونس و التي تعود إلى ٢٦ جمادى الثّاني ١٢٦٧ للهجرة الموافق لـــ ٢٨ أفريل ١٨٥١ .تبرز هذه الوثيقة حاجة ملحّة للقيام بترميمات و إصلاحات في عدّة مواطن من الجامع من ذلك أبواب الصّحن و براطيله و سقوف بيت الصّلاة و مصلّى الجنائز و الميضات و على ضوء هذه المعلومات ، نهدف إلى التعرّف أكثر على الإضافات و التدخّلات المعماريّة التي لحقت بهذا المعلم الدّيني الهّام في تاريخ المغرب الإسلامي و الرّاجعة إلى الفترة التركيّة (١٥٧٤-١٨٨١).

١ - تقديم الوثيقة:

تنتمي هذه الوثيقة عدد ٤٤ إلى الأرشيف الوطني بتونس و تحديدا إلى وثائق السّلسلة التاريخيّة التي تتنزّل تحت رقم ٦٢ و التي تحتوي على مراسلات تتضمّن بيانات بأحباس الجوامع و المدارس و الزّوايا بالبلاد التّونسية ما عدا الحاضرة.

يعود تاريخ هذه الوثيقة إلى السّادس و العشرين من جمادى الثاني من سنة ١٢٦٧ هـ الموافق لـــ ٢٨ أفريل ١٨٥١

و هي عبارة عن أمر توجّه به الباي أحمد باشا (١٨٣٧-١٨٥٥) إلى كبير أهل الشورى بمدينة القيروان و خطيب جامعها الأعظم أبو عبد الله محمد صدّام اليمني مضمونه أنّ الجامع الكبير و جامع الحنفيّة[١] وقع بهما ما يوجب الإصلاح و هو ما يستوجب القيام بتحقيق مواطن الخراب و إحصاء أوقاف الجامعين و قد قام أمناء البناء بإمعان النّظر و عاينوا الأماكن المتهاوية من المعلم حيث وجدوا أن سقف المسبكة الشرقيّة المعروفة بمسكبة الخضر عليه السّلام متهاوية و في حاجة إلى التّجديد و

• معدّة لرسالة الدّكتوراه في علوم التّراث تحت عنوان التّطوّر العمراني لمدينة القيروان في الفترة التّركيّة بإشراف الدّكتور مراد الرّماح و مسجّلة بكليّة العلوم الإنسانيّة و الاجتماعيّة بتونس و مساعدة متعاقدة بقسم علم الآثار بكليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة بالقيروان.

[١] بني هذا الجامع خلال الفترة التركيّة بأمر من محمّد باي (١٦٧٥-١٦٩٠) و يسمّى أيضا بالجامع الحنفي و هو المذهب الرّسمي للدّولة العثمانيّة و المعروف أن المذهب السّائد في إفريقية هو المذهب المالكي.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

سقف بيت اللّوح التي يقصد بها المقصورة (مقصورة المعزّ)[٢] المحاذية للمنبر هي في حاجة إلى التّجديد أيضا.

هذا إضافة إلى تفطّن خبراء البناء بعدَة نقائص في الصّيَانة من ذلك أنَ المسكبة السّادسة من النّاحية الشرقيَة جميع سقفها متهاو و يخشى سقوطه و جميع الأعمدة التي تحمل الأقواس السّبعة التي تعتمد عليها مسكبة الصّف الأوّل و ما يليها و مبدئها من أوّل الجهة الشرقيَة هي مائلة من الجوف إلى القبلة و بوسط كل قوس منها انشقاق و لاحظ أمناء البناء أنّ مساكب الجامع من المسكبة السّابعة إلى المسكبة السّابع عشر آخر مساكب الجامع تحتوي على سقوف متدليّة و متهاوية يخشى عليها من السّقوط و إزارات[٣] سقوف بيت الصّلاة تحتاج إلى الإصلاح كما تحتاج سقوف براطيل الصّحن إلى التّجديد .أ مّا الصّحن فقد فسد فرشه و عمّه نبات الحشيش و هو ما يتطلّب فرش جديد و جميع براطيله قد فسد فرشها أيضا و تحتاج هي الأخرى إلى فرش جديد و مصلّى الجنائز الشّرقي المفتح به إنهراش و يحتاج إلى التّرقيع بواسطة التّلبيس و التّمريق بالجير . وكذلك الميضات المجاورة لها الشّرقية المفتح بها قوس متهاو للسّقوط و قد أكّد أمناء البناء الثّلاثة (الحاج محمد فلح و الحاج أحمد فلح و الحاج محمد معرج) أنّ حال الجامع و ميضاته و مصلّى الجنائز في حاجة ملحّة إلى التّجديد و الإصلاح و إلاّ فإنّه يخشى على إستيلاء الخراب منه.

٢ - تقديم المعلم

يعتبر الجامع الكبير بمدينة القيروان و الذّي يعرف أيضا بجامع عقبة نسبة لمؤسّسه الأوّل عقبة بن نافع الذّي بناه حسب ما تورده المصادر سنة ٥٠ هـ /٦٧٠ م ، يعتبر من أهّم المعالم الدينيّة بإفريقيّة ، و من خلال المعلومات الوصفيّة لبعض المؤرخّين و الجغرافيّين ، يتبيّن لنا أنّ المعلم قد عرف إضافات و تدخّلات معماريّة تعاقبت عليه بتعاقب الفترات التاريخيّة منذ تأسيسه إلى نهاية الفترة الحديثة.

و تؤكّد المصادر التّاريخيَة و الدّراسة الأثريّة للجامع أنّ جزء كبير منه يعود إلى الأغالبة (٨٠٠-٩٠٩) مثل المحراب و القبّة التي تعلوه و قبّة البهو. و يقدّم لنا الجغرافي الأندلسي البكري وصفا دقيقا للجامع حيث يورد أنّ

" أوّل من وضع محرابه و بناه هو عقبة بن نافع ثمّ هدمه حسّان حاشا المحراب و بناه و حمل إليه السّاريتين الحمراوين الموشّتين بصفرة ... فلمّا كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أنّ الجامع يضيق بأهله و أنَ بجوفه جنّة

---

[٢] تسمَي المقصورة المحاذية للمحراب بالمقصورة المعزيَة نسبة إلى الأمير المعَز لدين الله الصَنهاجي الذي بناها في سنة ٤٣١ هـ /١٠٢٣ و أصلحت بعد ستَة قرون من ذلك التَاريخ و تتميَز المقصورة بأسلوب هندسي مميَز وجماليَة في نقش الخشب (أنظرالمنجي الكعبي ، *القيروان* ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ ، ص٨٠)

[٣] كلمة إزارات هي جمع إزارة و هو ما يوجد أسفل السَقف من خشب يحمل كتابات لآيات قرآنية .

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

كبيرة لقوم من فهر ، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها و أن يدخلها في المسجد الجامع ففعل و بني في صحنه ماجلا و بني الصّومعة في بئر الجنان ، فلمّا و لّي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب .هدم الجامع كلّه و أراد هدم المحراب ... فقال له بعض البناة : أنا أدخله بين حائطين و لا يظهر في الجامع أثر لغيرك فآستصوب ذلك و فعله فهو على بناءه إلى اليوم . و المحراب كلّه و ما يليه مبنَي بالرَخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله وهو مخرَم منقوش كلّه منه كتابة تقرأ و منه تدبيج مختلف الصَناعة تستدير به أعمدة رخام في غاية الحسن ، و عدد ما في الجامع من أعمدة أربعمائة و أربعة عشر عمودا و بلاطاته سبعة عشر بلاطا.و لمَا ولّي إبراهيم بن احمد بن الأغلب زاد في طول بلاطات الجامع و بنى القبَة المعروفة بباب البهو على أخر بلاط المحراب و في دورها اثنتان و ثلاثون سارية من بديع الرَخام ... و للجامع عشرة أبواب و مقصورة للنَساء في شرقيَها"[٤]

يعتبر هذا الوصف لحالة الجامع في القرن الرَابع للهجرة الموافق للعاشر ميلادي من أدَق ما جاءت به المصادر الجغرافيَة و يتبيَن لنا إذن أنَ كلَ العناصر المعماريَة المكوَنة للجامع قد آكتملت في ظلَ الحكم الأغلبي .و يتّفق الباحثون على أنَ الأروقة هي بناء أغلبي أيضا تمَ ترميمها خلال الفترة الحفصيَة و العثمانيَة و يحتوي الرَواق الجنوبي على أبواب قبليَة جدَدت في عهد المعَز بن باديس كما جدَدت في الفترة العثمانيَة و تحديدا سنة ١٢٤٤ هـ الموافق لـ ١٨٢٧ م[٥].

و يحتوي المعلم حاليَا على ثمانية أبواب منهما بابان نعلم تاريخ بنائهما بفضل وجود نقيشة على واجهة كلَ منهما.بالنَسبة للباب الأول فهو يوجد في الواجهة الغربيَة و قد كتب على لوح من المرمر النصَ التَالي : "بسم الله الرَحمان الرَحيم ، و صلى الله على محمد و على آله و صحبه ، أمر ببناء هذا الباب سيَدنا و مولانا الخليفة المستنصر بالله المؤيَد بنصر الله أمير المؤمنين أبو حفص بن الأمراء الرَاشدين خلّد الله أمرهم . و أعزَ نصرهم و ضاعف ثوابهم و جعل الأعمال الصَالحة ذخرهم و ذلك عام ثلاثة و ستَين وستمائة " و يقع الباب الثَاني في الواجهة الشرقيَة و يعود تاريخ بنائه حسب ما تشير إليه النَقيشة إلى سنة ٦٦٣ هـ/1264 .[٦]

٣ - محتوى الوثيقة و أهميَتها :

تعتبر هذه الوثيقة أداة من الأدوات العلميَة المتاحة للمؤرَخ و لعالم الآثار مثل دراسة المعالم و قراءة النَصوص القديمة و وثائق الأرشيف و التي نهدف من خلالها إلى

---

[٤] أبو عبيد البكري ، *المسالك و الممالك* ، الجزء الثاني ، تحقيق وفهرسة أدريان فان ليوفن و أندري فيري، الدار العربية للكتاب ، بيت الحكمة قرطاج ١٩٩٦ ، ج ٢,ص ٦٧٤-٦٧٥

[٥] نجوى عثمان ، *مساجد القيروان* ، دار عكرمة للنشر، دمشق ٢٠٠٠ ، ص ٨٩-٩٠

[٦] نجوى عثمان ، *مساجد القيروان* ، دار عكرمة للنشر، دمشق ٢٠٠٠ ، ص ٩٣-٩٤

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

التَعرف أكثر على التدخَلات المعماريَة التي لحقت بالجامع الكبير بمدينة القيروان في الفترة التركيَة.[٧]

إستنادا للدَراسة التي قامت بها نجوى عثمان حول مساجد القيروان, نجد أنَ جمعيَة الأوقاف تزخر بعدد هامَ من الوثائق التي تؤكَد أيضا الحالة المتردِيَة التي كان عليها الجامع في أواسط القرن ١٩ وترصد عمليَات القيام بمحاولات إصلاحيَة حيث تورد وثيقة من هذه الوثائق مؤرخَة في ١٩ رجب ١٢٩٢ للهجرة الموافق ل١٨٧٥ يعلم فيها نائب جمعيَة الأوقاف بالقيروان صالح الرمَاح شروع أمناء البناء القادمين من مدينة تونس في هدم ما هو معدم من سقف الجامع الأعظم.[٨]

أمَا بالنَسبة لصحن الجامع فإنَ وثيقة مؤرَخة في ٢١رمضان ١٣٠٠هـ الموافق لـ١٨٨٢ ، يؤكد فيها رئيس جمعية الأوقاف أنَ صحن الجامع قد كثر به الحشيش و يحتاج إلى الإزالة و هو ما وجدناه في وثيقتنا منذ سنة ١٨٥٠ و لم يقع تحسين الصَحن إلا سنة ١٣٠٩ هـ الموافق لسنة ١٨٩٠ حيث جاء في مخطوط مورد الظمآن أنَه وقع قلع فرش الصَحن و أزيل النَابت به و وضع له فرشة جديدة من الرَخام[٩] و فيما يخصَ البراطيل أي الأروقة و الميضات ، فقد تبيَن لنا أنَه لم يقع التدخَل لإصلاحها في السَنة ذاتها و ذلك إعتمادا على وثيقة أوردتها نجوى عثمان وهي عبارة عن جريدة تفقَد لسنة ١٩٠١ تبيَن أنَ جميع سطح البرطال الشَرقي المفتح على يسار الدَاخل من الباب الغربي المفتح المدخل للصَحن هو تراب و بالبرطال المذكور ميضاة مغلقة تسمي بميضاة الحفيان يلزمها التَرقيع بالبناء و التَجصيص بالجير و إصلاح أحواضها كما يلزم ترقيع جدران البرطاليين الغربي و الجوفي هذا إلى جانب الميضاة الشَرقية المفتح و الميضاة الجَوفية المفتح التي يلزم ترقيعهما[١٠] . و لم يقع القيام بكلَ هذه التدخَلات الإصلاحيَة الضروريَة إلا سنة ١٩٠٢ .

على ضوء هذه الوثيقة ، يمكن القول بأنَ الحالة المتردِيَة لمعلم بأهميَة الجامع الكبير بالقيروان يعدَ حدثا غير متوقعا خاصَة إذا ما وجدنا صورة مغايرة في كتب الرحَالة

---

[٧] تجدر الإشارة إلى أنَ مدينة القيروان قد فقدت دورها كمركز اقتصادي و سياسي منذ الفترة الحفصيَة حيث تنازلت عن هذا الدَور الذي طالما لعبته تحت حكم الأغالبة و الزيريين لصالح مدينة تونس و لذلك تبدو الحاجة ملحَة للتعرَف على التَرميمات التركيَة التي تمَت بالجامع الكبير و بالمعالم الدينيَة الأخرى في المدينة . و في هذا السَياق, نشير أنَ المدينة لم تخضع لدراسة تاريخيَة و أثريَة معمَقة في الفترتين الحفصيَة و العثمانيَة بإستثناء الدَراسة التي قام بها مؤخَرا الدكتور مراد الرمَاح حول الحياة العمرانيَة بمدينة القيروان في العهد الحفصي.

[٨] نجوى عثمان ، *مساجد القيروان* ، دار عكرمة للنشر ، دمشق ٢٠٠٠ ، ص ٣٢١

[٩] نجوى عثمان ، *مساجد القيروان* ، دار عكرمة للنشر ، دمشق ٢٠٠٠ ، ص ٣٢٣

[١٠] نجوى عثمان ، *مساجد القيروان* ، دار عكرمة للنشر ، دمشق ٢٠٠٠ ، ص ٣٢٥

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

الأروبيَين الذين زاروا المدينة إذ يصف Peysonnel و Desfontaines المعلم اللذان زاراه في ١٥ أفريل ١٧٨٤ بكونه الأجمل و الأقدس في كامل الإيالة[١١] و يخالفهما في ذلك الرحَالة Marcel Juillet الذي زار المدينة سنة ١٨٧٤ حيث يقرَ أنَ المعلم يكتسي أهميَة تاريخيَة بالغة إلاَ أنَه في حالة سيئَة من الصيَانة.[١٢]

و يبدو لنا أنَ حالة الجامع الكبير تعكس إلى حدَ ما الواقع العمراني و المعماري للمدينة عموما في ظلَ الحكم العثماني الذي لم يكن له برنامج واضح لترميم معالم المدينة و تحسينها بل كانت القيروان طيلة ثلاثة قرون رهينة التَغييرات السياسيَة و "مزاجيَة " البايات . و يمكننا ذكر بعض الأمثلة التي تحفظها لنا المصادر التَاريخيَة من ذلك محمَد باي (١٦٧٥-١٦٩٦) الذي أراد إنتهاج سياسة تقرَب من الأهالي و خاصَة من أهالي المدن الدَاخليَة ببناءه عديد المدارس في مدن الكاف و باجة و قفصة و القيروان أين أمر بتأسيس الجامع الحنفي و مقام أبي زمعة البلوي و هو مركَب يشمل المدرسة القرآنيَة و الضَريح و الجامع.

و يبقى هدم المدينة من قبل الباي السَادي مراد الثَالث (١٦٩٩-١٧٠٢) مثالا واضحا على إنعدام التَوازن العمراني لمدينة القيروان خلال الفترة التَركيَة حيث يذكر المؤرَخ الوزير السَراج بأنَ هذا الباي كان قد أمر بهدم القيروان و جعلها محترقا سنة ١٧٠١[١٣] لتستعيد مكانتها في عهد حسين بن علي (١٧٠٥-١٧٤٠) الذي أمر بإعادة بنائها ، فحسب ما جاء في كتاب ذيل البشائر لحسين خوجة ، استفادت القيروان من هذا المدَ الثَقافي و العمراني ببناء ما ينيف عن الخميسين مسجدا[١٤] . و يبقى المثال الأكبر إقناعا هو ذلك الذي نتج عن الصرَاع الباشي الحسيني و الذي إنقسمت خلاله البلاد بين مؤيَد لحكم حسين بن علي و مؤيَد لحكم خصمه و ابن أخيه علي باشا الذي آل إليه الحكم في الأخير و وجد بذلك فرصة سانحة للانتقام من مدينة القيروان حيث قام بتهميشها و هدم أسوارها و لم تستعد المدينة البعض من مكانتها إلا عند صعود الحسينيين(١٧٠٥-١٨٨١) مرَة أخرى إلى السَلطة ، فقاموا بتحسين الأسوار و بناء المدارس و تعمير المدينة امتنانا منهم لمساندة القيروانيين لمؤسَس دولتهم حسين بن علي أثناء النزَاع الباشي الحسيني.

---

[11] Peysonnel et Desfontaines, *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger*, 2 tomes, Paris Librairie de Gide 1838, tome II, p 59-61

[12] Marcel Juillet Saint-Lager, *La régence de Tunis géographie physique et politique description générale gouvernement, administration, finances*, Alger 1874, p 13

[١٣] الوزير السَراج ((توفي سنة ١٧٣٦)' *الحلل السندسيَة في الأخبار التَونسيَة*' تقديم و تحقيق محمَد الحبيب الهيلة, دار الغرب الإسلامي , بيروت, ١٩٨٥, الجزء الثاني, ص ٦٦٨.

[١٤] حسين خوجة(توفي سنة ١٧٣٢), *ذيل بشائرأهل الإيمان بفتوحات آل عثمان*, تحقيق و تقديم الطاهر المعموري, الدَار العربيَة للكتاب, ليبيا, تونس, ١٩٧٥ ' ص ١٠٧.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

في الختام يمكن القول إذن أنَ المعمار و التَعمير في مدينة القيروان تراوح في ظلَ حكم الأتراك ما بين بناء و تهديم و ذلك حسب الظَرفيَة السياسيَة و هو ما يجعل دراسة تطوَرها العمراني ، أمرا ليس بالهيَن ، يتطلَب بالتَالي إطلاعا واسعا على وثائق الأرشيف الوطني و أحباس المدينة و المصادر التَاريخيَة و الجغرافيَة هذا إلى جانب ضرورة العمل على دراسة المعالم و القيام بالبحث الشَفوي الذي يمكن أن يكون فعَالا.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

نسخة من الوثيقة مأخوذة من الأرشيف الوطني بتونس

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

مخطط مدينة القيروان. المصدر: المنجي الكعبي. القيروان. دار الغرب الإسلامي. بيروت ١٩٩٠

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

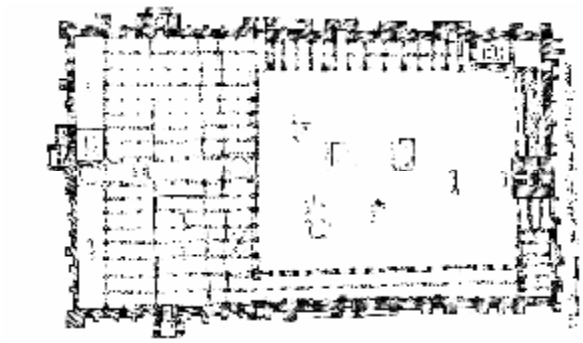

مخطط الجامع الكبير بمدينة القيروان

المصدر: نجوى عثمان, مساجد القيروان, دمشق ٢٠٠٠

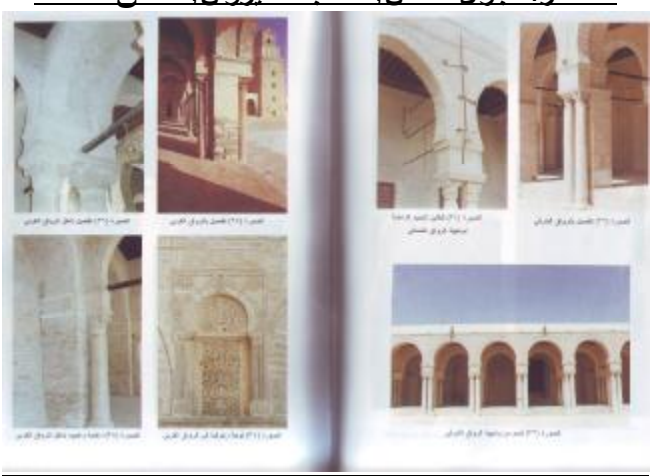

المصدر: نجوى عثمان, مساجد القيروان, دمشق ٢٠٠٠

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

البيبليوغرافيا:

المصادر:
- أبو عبيد البكري (توفّي سنة ١٠٩٤) ، *المسالك و الممالك* ، تحقيق وفهرسة أدريـــان فان ليوفن و أندري فيري، الدَار العربيَة للكتاب ، بيت الحكمة قرطاج, ١٩٩٦.
- حسين خوجة (توفّي سنة ١٧٣٢), *ذيل بشائرأهل الإيمان بفتوحات آل عثمان*, تحقيق و تقديم الطّاهر المعموري, الدَار العربيَة للكتاب, ليبيا, تونس, ١٩٧٥.
- الوزير السرَاج ((توفّي سنة ١٧٣٦)' *الحلل السندسيَة في الأخبار التَونسيَة* ' تقـــديم و تحقيق محمَد الحبيب الهيلة, دار الغرب الإسلامي , بيروت, ١٩٨٥.

المراجع:
- نجوى عثمان ، *مساجد القيروان* ، دار عكرمة للنشر، دمشق ٢٠٠٠.
- المنجي الكعبي, *القيروان*, دار الغرب الإسلامي, بيروت ١٩٩٠.

كتب الرَحالة الأوروبيين:

- Peysonnel et Desfontaines, *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger*, 2 tomes, Paris Librairie de Gide 1838.
- Marcel Juillet Saint-Lager, *La régence de Tunis géographie physique et politique description générale gouvernement, administration, finances*, Alger 1874.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.